

القدس والأمة

الأستاذ الدكتور علي محافظة

الجامعة الأردنية

الأربعاء ١٣ ربيع الأول ١٤٤٠ هـ - الموافق ٢١ تشرين الثاني ٢٠١٨ م

المُلخَّص

حظيت مدينة القدس بمكانة مرموقة في التاريخ الإنساني لم تساوها في ذلك أي مدينة، تميزت بخصوصية نالتها من تفردا بالبعد الروحي المرتبط بالزمان والمكان؛ فهي في الزمان ضاربة جذورها منذ الأزل بوجهها الحضاري المشرق، وتمتعت بالموقع والموضع، فكانت ملتقى الاتصال والتواصل بين قارات العالم القديم، كما تعاقبت عليها الحضارات، وأقامت فيها المجموعات البشرية المختلفة، مخلفة وراءها أثارها ومخطوطاتها القيمة، التي جسدت الملاحم التاريخية الدالة على قداسة المكان وعظمته.

المقدمة:

للقدس في نفوس العرب والمسلمين منزلة سامية وفي قلوبهم مكانة رفيعة، فهي جزء من العقيدة الإسلامية، ومعلم لا ينسى من معالم الحضارة العربية الإسلامية، وشاهد على اعتزاز العرب بالدفاع عنها عبر تاريخهم المجيد.

لقد ربط القرآن الكريم بينها وبين الحرم المكي في ذكر معجزة الإسراء والمعراج (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (سورة الإسراء، آية 1). وهي أولى القبلتين لدى المسلمين وفيها ثالث الحرمين المسجد الأقصى الذي يعد من المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال للصلاة فيها.

وهي، بعد ذلك كله، عاصمة فلسطين ومركز قدسيته وبركتها، وبوابة الأرض إلى السماء، ومسرى الرسول العربي الكريم محمد بن عبدالله، صلى الله عليه وسلم، ومنها كان معراجه إلى السماء. وهي في أيامنا هذه عنوان الصمود والثبات والمقاومة، ومواجهة العدوان والبطش والتهويد. وهي مدرسة في الصبر والتضحية والفداء، والمحفز لاستنهاض الأمة وتوحيدها، وهي جوهر الصراع العربي- الإسرائيلي. وكانت على مر التاريخ بؤرة الصراع بين الغرب الصليبي والشرق الإسلامي، وبوابة الانتصارات العظيمة.

سماها اليبوسيون الذين أنشأوها (يورو سالم: مدينة سالم) الإله الذي كانوا يعبدونه. وهم فرع من الكنعانيين الذين استقروا في بلاد الشام منذ الألف الرابع قبل الميلاد. وحملت اسم إيليا كابيتولينا (Aelia Capitolina)، بعد أن هدمها الإمبراطور

الروماني هديران (Aderianus)، وأعاد بناءها سنة ١٣٥م، حتى الفتح العربي الإسلامي لها سنة ٦٣٦م. وسماها العرب القدس أو بيت المقدس منذئذ^(١).

تعرضت القدس قبل الفتح العربي الإسلامي للهدم والدمار، منذ أن استقرت فيها أقلية من العبرانيين في القرن العاشر قبل الميلاد. فقد غزاها الملك الآشوري سرجون الثاني سنة ٧٢١ ق.م وهدمها وسبى أهلها، كما غزاها الملك البابلي نبوخذ نصر سنة ٥٩٧ ق.م وسبى أهلها وعاد إليها بعد عشر سنوات فسبى سكانها ثانية. ولما تغلب الملك الفارسي كورش على البابليين سنة ٥٣٩ ق.م احتل القدس في السنة التالية وأعاد سكانها الأسرى إليها. وخضعت القدس لحكم الإسكندر المقدوني سنة ٣٣٢ ق.م ولخلفائه من بعده السلوقيين والبطالمة. واستولى الرومان عليها سنة ٦٣ ق.م وبقيت تحت حكمهم حتى الفتح العربي الإسلامي. ولعل أهم حدث في العهد الروماني ظهور السيد المسيح واعتناق معظم سكان بلاد الشام المسيحية التي اعترفت بها الإمبراطورية الرومانية ديانة رسمية سنة ٣٢٥م.

سعى الرسول العربي الكريم إلى نشر الإسلام خارج جزيرة العرب فأرسل أول قوة إلى بلاد الشام بقيادة زيد بن حارثة فكانت معركة مؤتة سنة ٨هـ / ٦٢٩م. وفي عهد الخليفة الراشدي الثاني انتصر العرب على الروم في معركة اليرموك سنة ٦٣٦م. وتوجه القائد أبو عبيدة عامر بن الجراح نحو مدينة القدس لحصارها وفتحها، فاستمر الحصار أربعة أشهر، ثم عرض سكانها المصالحة وتسليم المدينة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. كتب أبو عبيدة إلى عمر: "بسم الله الرحمن الرحيم، لعبدالله عمر

(١) عبلة المهدي الزبدة، القدس: تاريخ وحضارة، ٣٠٠٠ ق.م - ١٩١٧م، بن، عمان، ٢٠٠٠، ص ١٧-٢٤.

أمير المؤمنين من أبي عبيدة بن الجراح، سلام عليك، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو، أما بعد،

فإننا أقمنا على أهل إيلياء، فظنوا أن لهم في مطاولتهم فرجاً، فلم يزداهم الله بهذا إلا ضيقاً ونقصاً وهزالاً وذللاً، فلما رأوا ذلك سألوا أن يقدم عليهم أمير المؤمنين فيغدر القوم ويرجعوا فيكون مسيرك -أصلحك الله- عناءً وفضلاً، فأخذنا عليهم الموائيق المغلظة بأيمانهم ليقبلن وليؤدن الجزية، وليدخلن فيما دخل فيه أهل الذمة، ففعلوا. فإن رأيت أن تقدم فافعل، فإن في سيرك أجراً وصلاحاً، أتاك الله رشداً، ويسر أمرك، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته"^(٢).

دعا عمر كبار الصحابة إليه، وقرأ عليهم كتاب أبي عبيدة، فقال عثمان بن عفان: "إن الله قد أذل الروم، وأخرجهم من الشام، ونصر المسلمين عليهم. وقد حاصر أصحابنا مدينة إيلياء، وضيقوا عليهم... فإن أنت أقتت ولم تسر إليهم، رأوا أنك بأمرهم مستخف ولقتالهم مستحقر، فلا يلبثون إلا اليسير حتى ينزلوا على الصغار ويعطون الجزية".

وقال علي بن أبي طالب: "عندي غير هذا الرأي، وأنا أبديه لك". فقال عمر: "وما هو يا أبا الحسن؟" فرد علي قائلاً: "إن القوم قد سألوكم، وفي سؤالهم ذلك فتح للمسلمين، وقد أصاب المسلمين جهد عظيم من البرد والقتال وطول المقام، وإنني أرى إن سرت إليهم فتح الله هذه المدينة على يديك". فخرج عمر من المدينة قاصداً بيت المقدس، بعد أن استخلف على المدينة علي بن أبي طالب"^(٣).

(٢) الواقدي، فتوح الشام، الجزء الأول، ص ١٦٣.

(٣) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٣، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٩، ص ١٥٩-١٦٠.

عند وصول عمر إلى القدس، أعطى أهلها العهد التاريخي المعروف بالعهد العمريّة. وهذا نصه كما جاء في كتاب الطبري:

"بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمتها وبريئتها وسائر ملتها. أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها، ولا من حيزها، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم. ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن إيلياء معهم أحد من اليهود.

وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن. وعليهم أن يُخرجوا منها الروم واللصوص. فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم. ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية. ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم، فإنهم آمنون على أنفسهم حتى يبلغوا مأمنهم. ومن كان بها من أهل الأرض فمن شاء منهم قعد، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية. ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله، لا يؤخذ منهم شيء حتى يُحصد حصادهم. وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين، إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية.

كتب وحضر سنة ١٥ هجرية، وشهد على ذلك خالد بن الوليد وعبدالرحمن ابن عوف وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان^(٤).

زار الخليفة عمر كنيسة القيامة، وأثناء الزيارة حان وقت الصلاة، فأشار عليه البطريرك صفرونيوس أن يصلي في داخل الكنيسة، لكن عمر أبى وخرج من الكنيسة وصلى في مكان قريب منها. ولما أتم صلاته قال عمر للبطريرك: "أذن لي أيها

(٤) المصدر نفسه، ص ١٦٠-١٦١.

الشيخ، إني لو أقمت الصلاة في كنيسة القيامة لوضع المسلمون عليها الأيدي من بعدي في حجة إقامة الصلاة فيها، وإني لأبى أن أمهد السبل لحرمانكم منها وأنتم لها أحق وأولى". وأقام عمر في بيت المقدس عشرة أيام^(٥).

واصل العرب معاملتهم للقدس وأهلها بروح التسامح والمودة التي عاملهم بها الخليفة الراشدي الثاني. وبويع معاوية بن أبي سفيان بالخلافة في بيت المقدس، مع أنه جعل دمشق عاصمة الخلافة الأموية لنحو قرن من الزمان.

واعتنى بنو أمية بالقدس فبنى عبدالملك بن مروان قبة الصخرة ومسجدها، وشرع ببناء المسجد الأقصى الذي أكمله ابنه الوليد من بعده بين سنتي ٦٨٨ و ٧١٤م. وتقبل الوليد بن عبدالملك البيعة في مسجد قبة الصخرة، وكذلك فعل أخوه سليمان سنة ٧١٥م.

ومع إهمال العباسيين لبلاد الشام التي ظل ولأؤها أمياً فقد كان للقدس أهمية خاصة، فزارها أبو جعفر المنصور مرتين سنة ٧٥٧م وسنة ٧٧١م. وأعاد ترميم المسجد الأقصى الذي أصابته هزة أرضية سنة ٧٤٧م، ثم أصابه زلزال في عهد الخليفة المهدي بن المنصور فرممه سنة ٧٨٠م، وزاره بعد الترميم. كما زار القدس الخليفة المأمون بن هارون الرشيد سنة ٨٣٠م، وأصلح الخليفة العباسي المقتدر بالله قبة الصخرة سنة ٩١٣م. وهكذا ظل المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة موضع عناية الخلفاء الأمويين والعباسيين والفاطميين حينما دخلت القدس تحت حكمهم بين سنتي ٩٧٥ و ١٠٩٩م، أي نحو قرن من الزمن ونيف^(٦).

(٥) عبلة المهدي الزينة، القدس، ص ٨٢-٨٣.

(٦) المرجع نفسه، ص ٨٤-١٠٩.

ومن الجدير بالذكر أن القرن الخامس الهجري الموافق الحادي عشر الميلادي قد شهد حالة من الفوضى والتمزق والتفكك في المشرق العربي. وسادت المنازعات المذهبية والأطماع السياسية بين الخلافة العباسية السنية في بغداد والخلافة الفاطمية الشيعية في القاهرة. وهيمن الأتراك السلاجقة على الخلافة العباسية منذ سنة ١٠٥٥م (٤٤٧هـ). وقامت حركات انفصالية ودويلات ضعيفة وهزيلة أطلق عليها الأتابكيات وعلى ولاتها الأتابكة يتقاسمها ورثة كل منهم عند موتهم. وكثيراً ما دارت الحروب بينهم طمعاً بالحكم والغنائم. وفي خضم هذه النزاعات، استطاع القائد السلجوقي ألب أرسلان هزيمة الإمبراطور البيزنطي رومانوس ديوجينوس (Romanus Diogenus) في معركة ملاذكرد سنة ١٠٧١م. وبعدها تدفق الأتراك السلاجقة وغيرهم نحو آسيا الصغرى، وسيطروا على هضبة الأناضول، وانحصرت الإمبراطورية البيزنطية في مدينة القسطنطينية وما حولها. فشعر الغرب الأوروبي بخطورة المد الإسلامي القادم من الشرق، بعد أن حاصروهم في الغرب في الأندلس وصقلية. ولذا لم يتردد في غزو المشرق العربي للقضاء على هذا الخطر في منبعه. وبدأت الحروب الصليبية تحت شعار تحرير قبر المسيح والأراضي المقدسة من الهيمنة الإسلامية.

في مجمع كليرمون بفرنسا، وجه البابا أوربان الثاني (Urban II) في ٢٧ تشرين الثاني ١٠٩٥م، بحضور أمراء ورجال دين يمثلون أوروبا و مندوبين عن الإمبراطور البيزنطي- خطاباً حماسياً، دعا فيه إلى قتال المسلمين وتحرير قبر المسيح. فاستجابت شعوب أوروبا وأمرؤها وملوكها، طمعاً في ثروات الشرق، وهرباً من الفقر والجوع والعبودية في نظامها الإقطاعي. واستعملوا الدين ستاراً لهذه الحركة العدوانية الاستعمارية الاستيطانية^(٧).

(٧) المرجع نفسه، ص ١١٠-١٢٣.

حاصر الصليبيون القدس في ٧ حزيران ١٠٩٩م بقيادة غودفري دويويون (Raymond de Toulouse) وريمون دوتولوز (Gaufrey de Bouillon)، ودخلوها في ١٥ تموز من السنة نفسها، وأعملوا في أهلها القتل والذبح. وذكر المؤرخ الفرنسي فولشييه الشارترى (Fulcher de Chartres) المرافق للقوات الغازية: "كانت القدم تغوص حتى الكاحل بدماء المسلمين"^(٨).

ولما كان الشعراء ضمير الأمة الحي ولسانها المعبر عن أوجاعها وأحزانها وأفراحها وأمجادها، فقد قال الشاعر أبو المظفر الأبيوردي، بعد احتلال الفرنجة للقدس، واستقبال الخليفة الفاطمي لنباً سقوط القدس ببرود شديد، بينما لم يحرك الخليفة العباسي ساكناً:

| | |
|---------------------------------|--|
| مزجنا دماء بالدموع السواجم | فلم يبق منا عرضة للمراحم |
| وشر سلاح المرء دمع يفيضه | إذا الحرب شبت نارها بالصوارم |
| فإيهاماً بنبي الإسلام إن وراءكم | وقائع يلحقن الذرا بالمناسم |
| فإيهاماً بنبي الإسلام إن وراءكم | ظهور المذاكي أو بطون القشاعم |
| تسومهم الروم الهوان وأنتم | تجرون ذيل الخفض فعل المسالم ^(٩) |

(٨) المرجع نفسه، ص ١٣٢-١٣٤، وفوشيه الشارترى، تاريخ الحملة إلى القدس (١٠٩٥-١١٢٧م)،

ترجمة زياد العسلي، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٠، ص ٧٣-٧٥.

(٩) عزت جرادات، تاريخ القدس وحاضرها: منهج للتعليم العام والعالى، المؤتمر الإسلامى لبيت

المقدس، عمان، دار النفائس، ٢٠٠٥، ص ١٥٨.

توالى ملوك الفرنجة على مملكة القدس بين سنتي ١٠٩٩ و ١١٨٧م، أي ثمان
وثمانين سنة^(١٠).

انبعثت حركة الجهاد الإسلامية في شمال العراق على يد آل زنكي في الموصل،
وسعت إلى توحيد القوى الإسلامية المبعثرة في الإمارات المتناحرة في بلاد الشام.
وتولى المهمة عماد الدين زنكي حاكم الموصل سنة ١١٢٧م، فنظم أمور إمارته وضم
إليها حلب، واستولى على إمارة الرها الصليبية سنة ١١٤٤م وضمها إلى إمارته، فكان
أول نصر يحققه المسلمون على الفرنجة، فزالَت عقدة التفوق الفرنجي على المسلمين.
خلف نور الدين محمود أباه عماد الدين سنة ١١٤٦م وواصل رسالة والده. ورأى
بحسه الاستراتيجي أن وحدة مصر والشام هي منطلق التحرير والخلص من الاحتلال
الأجنبي. فأرسل جيشاً بقيادة شيركوه لتخليص مصر من الحكم الفاطمي الضعيف
وضمها إلى إمارته. فاستولى عليها وتولى منصب الوزارة فيها، وخلفه ابن أخيه
صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ١١٧١م^(١١).

ثبت صلاح الدين مركزه في مصر بكسب ولاء الجيش له وميل شعب مصر
إليه. ففضى على الخلافة الفاطمية دون أي ردود فعل عنيفة ودون ضحايا. ودعا
بالولاء للخليفة العباسي المستضيء بنور الله في أول جمعة من محرم سنة ٥٦٧هـ/
١١٧١م. ولما توفي نور الدين زنكي ببيع بالملك ابنه الصغير الملك الصالح

(١٠) انظر: مصطفى الحباري، القدس في زمن الفاطميين والفرنجة، المعهد الملكي للدراسات
الدينية، عمان، ١٩٩٥.

(١١) قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية (الأيدولوجية- الدوافع- النتائج)، عين للدراسات
والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٣، ص ١٣٥-١٤٣.

إسماعيل في دمشق، وأيده صلاح الدين في مصر. ثم قدم إلى دمشق وتولى الحكم بنفسه بعد أن عينه الخليفة العباسي سلطاناً على مصر وبلاد الشام سنة ١١٧٤م^(١٢).

وأخذ يعد العدة لقتال الفرنجة واستعادة القدس منهم. واغتتم فرصة نقض أرنات (Renaud de Chatillon) صاحب الكرك معاهدة الهدنة المبرمة بين صلاح الدين وملك القدس الصليبي، واستولى على قافلة تجارية قادمة من القاهرة إلى دمشق، وأسر من في القافلة من مدنيين وعسكريين رجالاً ونساءً في مطلع سنة ١١٨٧م. وعجز ملك القدس غي دو لويزينيان (Guy de Louisignan) عن استرداد ما نهبه أرنات. عندها نذر صلاح الدين دمه، ودعا إلى إعلان الجهاد العام والتعبئة العامة لجميع القوى الإسلامية.

انطلق صلاح الدين بقواته من دمشق إلى حوران فالكرك فحاصرها دون أن يتمكن من الاستيلاء عليها، وعاد إلى حوران واتجه إلى شرق الأردن، ومنها نزل بقواته إلى بحيرة طبرية. وجمع قواته غربي البحيرة عند قرية حطين، بينما تجمع الصليبيون في قرية صفورية شمال فلسطين، وقرروا الزحف نحو قوات صلاح الدين. دارت معركة حطين في الرابع من تموز ١١٨٧م. وهزم فيها الفرنجة هزيمة ساحقة واستسلم ملك القدس وأرنات. وأعطى صلاح الدين الملك الصليبي وقادة جيشه العفو والأمان ما عدا أرنات الذي أمر بقتله. وبعد أن حرر صلاح الدين مدن الساحل الفلسطيني زحف على القدس وبدأ حصارها في ٢٦ أيلول ١١٨٧. عرض الفرنجة في القدس على صلاح الدين تسليم المدينة بشرطي العفو والأمان اللذين منحهما لجميع

(١٢) المرجع نفسه، ص ١٤٣-١٤٦.

المواقع الصليبية التي استسلمت له. قبل صلاح الدين ذلك بتردد، على أن يرحل عنها الفرنجة اللاتين غير العرب خلال أربعين يوماً، وأن يحملوا معهم جميع نفائسهم وأموالهم مقابل فدية قدرها عشرة دنانير للرجل وخمسة دنانير للمرأة وديناران للطفل، ويعفى الفقراء والشيخوخ من الرجال والنساء.

وفي يوم الجمعة ٢٧ رجب سنة ٥٨٣هـ الموافق ٢ تشرين الأول ١١٨٧م، وقع قادة الصليبيين على اتفاقية تسليم القدس لصلاح الدين الأيوبي، ورحل عنها اللاتين من الفرنجة. وكان أول أعمال صلاح الدين في المدينة المقدسة إزالة آثار الاحتلال الصليبي من نقوش وصلبان. ومكث صلاح الدين فيها (٢٨) يوماً ثم عهد إلى أخيه العادل بإدارتها. ولما علم الإمبراطور البيزنطي إسحاق أنجيلوس بعودة القدس إلى المسلمين، طلب من صلاح الدين إعادة الأماكن المسيحية المقدسة إلى الكنيسة الأرثوذكسية فاستجاب صلاح الدين لطلبه^(١٣).

وابتهج الشعراء لسان الأمة، بتحرير القدس على يد صلاح الدين فقال أبو علي

الجويني:

| | |
|---------------------------------|--|
| أضحى ملوك الفرنج الصيد في يده | صيداً وما ضعفوا يوماً وما هانوا |
| تسعون عاماً بلاد الله تصرخ والإ | سلام أنصاره صم وعميان |
| فالآن لبي صلاح الدين دعوتهم | بأمر من هو للمعوان معوان ^(١٤) |

(١٣) المرجع نفسه، ص ١٤٧-١٤٨، وعبلة المهتدي الزيدة، القدس تاريخ وحضارة، ص ١٨٨-١٩٦.

(١٤) عزت جرادات، تاريخ القدس وحاضرها، ص ١٦٠.

بعد ثمان وثمانين سنة من الاحتلال الصليبي للقدس، فقدت المدينة طابعها العربي الإسلامي؛ فقد حول المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة إلى كنائس ومنازل لفرسان الاستبارية والداوية وإسطبلات لخيولهم. ولذلك سعى صلاح الدين إلى إعادة الطابع العربي الإسلامي إلى المدينة المقدسة. وأعاد سكانها العرب إليها، وأسكن عدداً من القبائل العربية فيها مثل: بني حارث وبني مرة وبني سعد وبني زيد. وحصن المدينة حتى لا تتعرض لغزو صليبي جديد. ورسم المسجد الأقصى وقبة الصخرة وكساها بالفسيفساء، وكسا المحراب بالرخام، وأتى بالمنبر الخشبي المرصع بالعاج والأبانوس الذي أمر نور الدين زنكي بصنعه في حلب سنة ١١٦٨م، ووضع في المسجد الأقصى رمزاً للنصر. وأنشأ الخانقاة الصلاحية لمشايخ الصوفية، وأوقف لها، وأنشأ المدرسة الصلاحية. وبنى البيمارستان الصلاحي ودار الكتاب مقابل المسجد الأقصى لتعليم القرآن الكريم. وأنشأ الزاويتين الختنية والجراحية^(١٥).

وأنشأ خلفاء صلاح الدين من السلاطين الأيوبيين العديد من معالم القدس الإسلامية، ولكن الملك الكامل الأيوبي سلم القدس للإمبراطور الألماني فريدريك الثاني دون قتال سنة ١٢٢٨م واستمرت تحت حكم الفرنجة حتى استعادها حاكم الكرك الملك داود بن الملك المعظم الأيوبي سنة ١٢٣٩م. وخضعت مرة ثالثة للحكم الصليبي لمدة سنة واحدة ١٢٤٣ - ١٢٤٤م. وتم تحريرها على يد قوات الخوارزمية في عهد الملك الصالح نجم الدين الأيوبي^(١٦).

(١٥) شفيق جاسر أحمد محمود، القدس تحت الحكم الصليبي ودور صلاح الدين في تحريرها (١٠٩٩ - ١٢٤٤)، مكتبة الدار، المدينة المنورة، ١٩٨٩، ص ٧٣-٧٥.

(١٦) عصام عقلة ويوسف بني ياسين وفوزي الطواهيّة، القدس في العهد الأيوبي (١١٨٧ - ١٢٥٣)، في تاريخ مدينة القدس عبر العصور، منذ الألف الرابع قبل الميلاد إلى الوقت الحاضر، محمد عدنان البخيت وحسين محمد قهواتي (محرران)، الجامعة الأردنية، عمان، ٢٠١٧، ص ١٩٣-٢٠١.

انتهت سلطنة الأيوبيين سنة ١٢٥٣م وبدأ عهد المماليك الأتراك البحرية والمماليك الشركاسة البرجية الذي استمر حتى الفتح العثماني لبلاد الشام سنة ١٥١٦م. اتخذ المماليك الجهاد سبيلاً لإثبات جدارتهم في الحكم وحماية المقدسات الإسلامية. وأحيوا الخلافة العباسية في مصر، بعد أن قضى عليها التتار في بغداد سنة ١٢٥٨م، وأنشأوا المؤسسات الدينية والثقافية في المدن الشامية والمصرية، وفي مدينة القدس بخاصة.

وكان من أبرز سلاطين المماليك الأتراك البحرية قطز المعزّي ١٢٥٩-١٢٦٠، الذي تصدى لجيش هولكو التتري وهزمه في معركة عين جالوت سنة ١٢٦٠م. ومنهم خليفة قطز الظاهر بيبرس البندقداري (١٢٦٠-١٢٧٧م) الذي كان له دور مهم في تحرير بلاد الشام من الصليبيين، ومنهم أيضاً قلاوون بن عبدالله الصالحي الألفي الذي اعتنى بمدينة القدس، وأنشأ فيها الرباط المنصوري والمسجد القلندري، وبنى ابنه محمد من بعده رباط الكرد والمدرسة السلامية (الموصلية) وزاوية المغاربة والمدرسة الدوادية والمدرسة التنكزية.

أما السلاطين الشركاسة فكانوا أربعة وعشرين سلطاناً أولهم برقوق وآخرهم طومان باي. أنشأ برقوق خان السلطان بالقدس، وبنى السلطان برسباي المدرسة الباسطية والمدرسة الغادرية والمدرسة الحسنية فيها. وأنشأ السلطان قايتباي الظاهري الرباط الزمني والمدرسة الأشرفية في بيت المقدس^(١٧).

(١٧) محمد عدنان البخيت ونوفان السوارية، القدس في العهد المملوكي (١٢٥٣-١٥١٦)، تاريخ مدينة القدس عبر العصور، محمد عدنان البخيت وحسين محمد القهوتي (محرران)، الجامعة الأردنية، عمان، ٢٠١٧، ص ٢٠٩-٢٤٨. وحول الملك الظاهر بيبرس انظر: عز الدين محمد بن شداد، تاريخ الملك الظاهر، باعتناء أحمد حطيظ، دار النشر (Franz Steiner Verlag, Wiesbaden)، النشرات الإسلامية (٣١)، ١٩٨٣.

دخل السلطان العثماني سليم الأول القدس في ٣٠ كانون الأول ١٥١٦م، بعد انتصاره على المماليك في معركة مرج دابق في ٢٣ آب من السنة نفسها، وخرج العلماء والأنقياء لملاقاة السلطان العثماني، وسلموه مفاتيح المسجد الأقصى وقبة الصخرة، فما كان من السلطان إلا أن قدم لأعيان المدينة الهدايا، وأعفاهم من الضرائب، وثبتهم في وظائفهم ومناصبهم. وأقام السلطان يومين في المدينة. وغادرها في اليوم الأول من عام ١٥١٧ إلى مصر. وفي عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦) رمم قبة الصخرة، وأعاد بناء سور القدس بين سنتي ١٥٣٦ و١٥٤٠ بطول ميلين تقريباً وارتفاع معدله أربعون قدماً. وأنشأ فيه أربعة وثلاثين برجاً وسبعة أبواب. وبنى ستة أسبلة جميلة.

شهدت القدس وفلسطين تحولاً عميقاً في القرن التاسع عشر الميلادي ساهم في تعميقه ضعف الدولة العثمانية وهزائمها العسكرية في الساحات الأوروبية والآسيوية والإفريقية. وتسابقت الدول الاستعمارية الأوروبية (بريطانيا وفرنسا والنمسا وألمانيا وروسيا) على فرض نفوذها في القدس. فقد أنشئت القنصلية البريطانية سنة ١٨٣٨، وكانت أول قنصلية غربية فيها. وتولت رعاية المصالح البريطانية والأمريكية واليهودية. وتوالى فتح القنصليات الأوروبية، ففي سنة ١٨٥٦ افتتحت القنصلية الفرنسية، وفي السنة التالية افتتحت قنصلية الولايات المتحدة الأمريكية، وافتتحت القنصليتان الروسية واليونانية سنة ١٨٦٥. وبلغ عدد القنصليات الغربية في القدس ثمان قنصليات^(١٨).

(١٨) عبلة المهدي الزبدة، القدس، ص ٣٧٠ و٣٧٨، وعلي محافظة، العلاقات الألمانية- الفلسطينية ١٨٤١-١٩٤٥، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨١، ص ٣٧-٩١.

ولم يقتصر التنافس على إنشاء القنصليات وإنما امتد إلى الطوائف الدينية المسيحية؛ فقد أنشئت أول أسقفية إنكليزية-بروسية في القدس سنة ١٨٤١، وبنيت كاتدرائية بروتستانتية هي كنيسة المسيح (Christ Church) سنة ١٨٤٩. واعترفت الدولة العثمانية لأول مرة بالبروتستانت طائفةً دينية رسمية سنة ١٨٥٠، أي بعد إنشاء الأسقفية بعشر سنوات. وعين البابا بيوس التاسع (Pius XI) أول بطريرك لاتيني في القدس سنة ١٨٤٧.

والواقع أن اهتمام المسيحيين الأوروبيين والأمريكيين بالقدس وبفلسطين يعود إلى اعتبارات دينية تعود إلى بداية العصور الحديثة؛ ففي منتصف القرن الرابع عشر الميلادي أمر ملك إنكلترا ريتشارد الثاني بتوحيد العهد القديم والعهد الجديد (الأناجيل الأربعة) في كتاب واحد لأول مرة. وجاء في الأمر الملكي هذا: "أردنا كتاباً واحداً مقدساً في حجم كبير ليوضع في كل كنيسة في إنكلترا" ووجه كلامه لرجال الدين: "يجب أن لا تعرقلوا قراءته، بل على العكس حضوا رواد الكنائس وأغروهم بدراسة الكتاب الموحد". وهكذا أصبح المتدين البريطاني يقرأ الأناجيل مع العهد القديم وتزداد قناعته بالنبوءات المزعومة فيه التي تبشر بعودة اليهود إلى فلسطين. وغدا الدينان اليهودي والمسيحي في كتاب واحد. وأصبح المسيحيون الأوروبيون يعتقدون أن عودة المسيح الثانية لا تأتي إلا بعودة اليهود إلى فلسطين^(١٩).

ولا بد من القول إن المسيحيين العرب قد أعلنوا رفضهم لرضوخ الكنائس الغربية للضغوط اليهودية، وتصدت الكنائس العربية لتيار الأغلبية الغربية في المجمع المسكوني الذي عقد سنة ١٩٦٤^(٢٠).

(١٩) كامل الشريف، كلمات وأبحاث في قضية القدس، ص ٩-١٠.

(٢٠) المرجع نفسه، ص ٣٦.

والواقع أن فكرة تهجير اليهود من أوروبا إلى فلسطين، في جذورها، فكرة مسيحية أوروبية، الغاية منها التخلص من الأقليات اليهودية في المجتمعات الأوروبية التي كانت تنافس الأوروبيين في مختلف مجالات الحياة الاقتصادية، وتعيش في أحياء مستقلة خاصة بها تسمى الغيتو (Ghetto) منعزلة لا تختلط ببقية فئات وطبقات المجتمعات الأوروبية. وكان لهذه الفكرة دافع ديني مرتبط بالمعتقدات المسيحية بعودة المسيح إلى الأرض في آخر الزمان، فعودة اليهود إلى فلسطين من علامات نهاية العالم، إذ إنهم، حسب العقيدة المسيحية، سوف يتحولون إلى المسيحية تمهيداً لنزول المسيح إلى أرض فلسطين.

وقد ربطت حركة الإصلاح الديني في أوروبا في القرن السادس عشر الميلادي بقيادة مارتن لوثر (Martin Luther) وجان كالفن (Jean Calvin) وأولريش زفنگله (Ulrich Zwingli) بوضوح بين فكرة نهاية العالم وتحول اليهود إلى المسيحية وعودتهم إلى فلسطين. وقد عبّر عن هذا المعتقد رجل الدين الإنكليزي توماس برايتمان (Thomas Brightman) حينما كتب "هل سيعودون ثانية إلى القدس؟ هذا أمر مؤكد، فالأنبياء يؤكدون ذلك في كل مكان ويحومون حولها". وتمنى برايتمان أن يتحول اليهود إلى المسيحية أو يغادروا أوروبا إلى الأبد.

وبعد مئة سنة كتب اللاهوتي الألماني هنري أولدنبورغ (Henry Oldenburg):
"إذا توفرت الفرصة في ظل التغييرات المعروضة لها الشؤون البشرية، فقد ينشئ اليهود إمبراطوريتهم من جديد. وقد يختارهم الله مرة أخرى"^(٢١).

(٢١) Ilan Pappé, Ten Myths About Israel, Verso, London, 2017, pp. 11-

ولا شك أن كراهية المسيحيين الأوروبيين لليهود المعروفة بالعداء للسامية (anti-Semitism) كانت وراء هذه الأقوال التي تحولت في القرن السابع عشر إلى حركة اجتماعية؛ فقد نظم العديد من المطهرين (Puritans) الإنكليز حركة لمساعدة اليهود على الاستيطان في فلسطين، وقدموا عريضة إلى حكومة أوليفر كرمويل (Oliver Cromwell) سنة ١٦٤٩ جاء فيها:

"إن الأمة الإنكليزية مع سكان الأراضي المنخفضة (هولندا) سيكونون أول الناس وأكثرهم استعداداً لنقل أبناء إسرائيل وبناتها على سفنهم نحو الأرض الموعودة لأجدادهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب، كما يصبح إراثاً دائماً لهم"^(٢٢).

وتطورت هذه الدعوة إلى أهداف استراتيجية استعمارية في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر؛ فقد عرضت حكومة الإدارة في فرنسا سنة ١٧٩٨ إنشاء كومونولث يهودي في فلسطين في حال نجاح الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت (Napoleon Bonaparte) في احتلال مصر والمشرق العربي، مقابل تمويل اليهود للحملة، إذ كانت الحكومة الفرنسية في ضائقة مالية، ومقابل قيامهم ببيت الفوضى والاضطراب في المناطق التي سيرتاها الجيش الفرنسي. ولما وصل نابليون إلى مصر سنة ١٧٩٨ أصدر بياناً حث فيه يهود آسيا وأفريقيا على الالتفاف حول رأيه من أجل إعادة مجدهم الغابر، وإعادة بناء مملكة القدس القديمة^(٢٣).

(٢٢) أمين عبدالله محمود، مشاريع الاستيطان اليهودي في فلسطين منذ قيام الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، الكويت، عالم المعرفة، العدد (٧٤) فبراير/ شباط ١٩٨٤، ص ١٣.

(٢٣) المرجع نفسه، ص ١٤-١٥.

وغدت هذه الفكرة تتردد على ألسنة السياسيين والكتاب في بريطانيا منذ بداية القرن التاسع عشر، أمثال الزعيم الاسكتلندي والقائد العسكري جون ليندسي (John Lindsay) والفيلسوف الإنكليزي ديفيد هارتلي (David Hartley). وتمنى الرئيس الأمريكي جون آدمز (John Adams) (١٧٣٥-١٨٢٦) أن يعود اليهود إلى جبال اليهودية كأمة مستقلة.

وبدأ الإعداد لبسط النفوذ الثقافي والديني والسياسي البريطاني في فلسطين منذ بداية القرن التاسع عشر؛ ففي سنة ١٨٠٤ تأسست في لندن "جمعية لندن لنشر المسيحية بين اليهود The London Society for Promoting Christianity Amongst the Jews" والتي عرفت فيما بعد باسم "جمعية اليهود اللندنية The London Jews Society"^(٢٤).

وفي بريطانيا نفسها قام لورد شافتسبري (لورد آشلي سابقاً) (١٨٠١-١٨٨٥) بحملة واسعة من أجل إقامة وطن لليهود في فلسطين. وقد تأثر بما جاء في كتاب جيمس بتشينو (James Bicheno) "إعادة اليهود The Restoration of Jews" الذي دعا فيه إلى تجميع اليهود من أنحاء العالم في فلسطين. وأقنع شافتسبري رئيس وزراء بريطانيا بالمرستون (Palmerston) بهذه الفكرة. ولما عقد مؤتمر لندن للنظر في مستقبل محمد علي باشا حاكم مصر سنة ١٨٤٠، عرض بالمرستون مشروع توطين اليهود في فلسطين بعنوان "مشروع أرض بغير شعب لشعب بلا أرض". وحذر

(٢٤) علي محافظة، الحركات الفكرية في عصر النهضة في فلسطين والأردن، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٨٧، ص ٢٠.

شافتسبري الحكومة البريطانية من أن تقاعسها قد يدفع روسيا إلى القيام بهذا المشروع^(٢٥).

وأقنع شافتسبري بالمرستون بتعيين رفيقه المؤمن بعودة اليهود إلى فلسطين وليم يونغ (William Young) نائب قنصل في القدس سنة ١٨٣٨. وكتب شافتسبري مقالاً من ثلاثين صفحة في مجلة (The London Quarterly Review) بعنوان "الدولة وإحياء اليهود State and Restoration of Jews" جاء فيه: "يجب تشجيع اليهود للعودة بأعداد كبيرة، ليصبحوا مرة أخرى مزارعين في اليهودية والجليل. ومع أنهم باعتراف الجميع، شعب عنيد وذوو قلوب سوداء، وغارقون في الانحطاط الأخلاقي والإثم والجهل بالإنجيل، فهم ليسوا أهلاً للخلاص، ولكنهم ضرورة لأمل المسيحية في الخلاص"^(٢٦).

ومن أبرز الشخصيات البريطانية التي دعت وروجت لفكرة الاستعمار اليهودي لفلسطين هنري تشرشل (Henry Churchill) (١٨١٤-١٨٧٧)، ولورنس أوليفانت (Lawrence Oliphant) (١٨٢٩-١٨٨٨)، عضو مجلس العموم البريطاني، الذي دعا إلى استيطان اليهود في منطقة البلقاء في شرق الأردن، وألف كتاب "أرض جلعاد The Land of Gilead" وكتاب "حيفا أو الحياة في فلسطين الحديثة Haifa or Life in Modern Palestine"، ورجل الدين وليم هشلر (William Hischler) (١٨٤٥-١٩٣١) صديق تيودور هرتسل (Theodore Herzl)، ومؤلف كتاب

(٢٥) المرجع السابق، ص ٢٠.

Ilan Pappé, op. cit., p. 14 (٢٦)

"إرجاع اليهود إلى فلسطين حسبما ورد في أسفار الأنبياء The Restoration of Palestine According to the Prophets Jews to سنة ١٨٨٤ (٢٧).

وأنشئ "صندوق استكشاف فلسطين Palestine Exploration Fund" سنة ١٨٦٥، برعاية الملكة فيكتوريا ورئيس أساقفة كنتربري لدراسة آثار وتاريخ وجغرافية وجيولوجيا ومناخ فلسطين، وقام سلاح الهندسة الملكي بذلك، وأصدر الصندوق سنة ١٨٩٢ كتاب "المدينة والأرض The City and the Land".

وسعت الولايات المتحدة الأمريكية إلى منافسة بريطانيا في هذا الميدان، فأنشأت "الجمعية الأمريكية لاستكشاف فلسطين" سنة ١٨٧٠، على غرار صندوق استكشاف فلسطين البريطاني (٢٨).

وهكذا نرى أن بريطانيا بدأت تهيب نفسها، منذ خروج قوات محمد علي باشا من فلسطين سنة ١٨٤٠، لتصبح الحامية الوحيدة لليهود فيها وفي بقية ولايات الدولة العثمانية، وتسعى إلى تشجيع اليهود للهجرة إلى فلسطين، تمهيداً لقيام كيان سياسي لهم فيها.

وتزامن هذا المسعى البريطاني، مع بداية اهتمام اليهود أنفسهم بفكرة استعمار فلسطين في عقد الثلاثينيات من القرن التاسع عشر. وكان من أوائل أثرياء اليهود الذين ساهموا في استعمار فلسطين مويس موننتفيوري (Moys Montefiori) (١٧٨٤-١٨٨٥) الذي قابل محمد علي باشا سنة ١٨٣٩، ووعده الأخير بتأجيره

(٢٧) أمين محمود، مشاريع الاستيطان اليهودي في فلسطين، ص ٣٣-٣٦.

(٢٨) المرجع نفسه، ص ٤٤.

حوالي مئتي قرية في منطقة الجليل شمال فلسطين لمدة خمسين سنة معفاة من الضرائب، والسماح بإرسال خبراء لتدريب اليهود على أعمال الزراعة والصناعة^(٢٩).

وظهر في أوروبا عدد من المفكرين اليهود يدعون إلى تهجير اليهود إلى فلسطين كحل لعداء الحكومات والشعوب الأوروبية للأقليات اليهودية التي تعيش بينهم، ومن أبرز هؤلاء المفكرين يهودا القلعي (Yehuda Alkali) (١٧٩٨-١٨٧٨) مؤلف كتاب "اسمعي يا إسرائيل" سنة ١٨٣٤، وتسفي كاليشر (Zvi Kalischer) (١٧٩٥-١٨٧٤) مؤلف كتاب "البحث عن صهيون Derishat Zion"، وموزس هيس (Moses Hess) (١٨١٢-١٨٧٥) مؤلف كتاب "بعث إسرائيل The Revival of Israel" سنة ١٨٦٢، والمعروف بعنوان "روما والقدس Rom and Jerusalem"، وليو بنسكر (Leo Pinsker) (١٨٢١-١٨٩١)، وبيرتس سمولنسكين (Peretz Smolenskin) (١٨٤٢-١٨٨٥) الذي أصدر مجلة ها شاحار (Ha-Shahar) بالعبرية ومعناها "الفجر"، وموشيه ليلينبلوم (Moshe Lilienblum) (١٨٤٣-١٩١٠) الذي جمع مقالاته التي نشرها بالروسية وترجمها إلى العبرية تحت عنوان "حول بحث اليهود عن أرض أجدادهم"، وإليعيز بن يهودا (Eliezer Ben Yehuda) (١٨٥٨-١٩٢٢) الذي عمل أربعين سنة على إصدار قاموس للعبرية من (١٧) مجلداً. وكان آخرهم تيودور هرتسل (Theodor Herzl) (١٨٦٠-١٩٠٤) مؤسس الحركة الصهيونية، ومؤلف كتاب "دولة اليهود Der Juden Staat" بالألمانية الصادر سنة ١٨٩٦، ورئيس المؤتمر الصهيوني الأول الذي عقد في مدينة بازل (Basel) السويسرية سنة ١٨٩٧^(٣٠).

(٢٩) المرجع نفسه، ص ٦٠.

(٣٠) المرجع نفسه، ص ٦٤-١٥٣.

أدرك قادة الحركة الصهيونية أن ليس بإمكانهم تحقيق مشروعهم الاستعماري إلا بتبنيه من قبل دولة كبرى قوية تحميه وتسهل عملية تحقيقه. ولذا اتجهت أنظار هرتسل إلى ألمانيا وحاول إقناع مستشارها بيرنهارد فون بيلوف (Bernhard von Buelow) والقيصر الألماني فيلهلم الثاني (Wilhelm II). ولكن جهوده باءت بالفشل^(٣١). فاتجه نحو بريطانيا، وعقد المؤتمر الصهيوني الرابع في لندن سنة ١٩٠٠.

وبعد موت هرتسل سنة ١٩٠٤ انتقلت قيادة المنظمة الصهيونية العالمية إلى برلين وبقيت فيها طوال الحرب العالمية الأولى وحتى سنة ١٩٢٠، من أجل الضغط على الدولة العثمانية لتبني المشروع الصهيوني، باعتبار ألمانيا الحليف المؤثر على القيادة العثمانية، أنشأت المنظمة الصهيونية لها مكتباً في العاصمة العثمانية تولى رئاسته ديفيد جاكبسون (David Jacobson)^(٣٢). ولم ينجح جاكبسون في الحصول على تصريح من الحكومة العثمانية بتأييد المشروع الصهيوني في فلسطين، على الرغم من الضغوط التي مارستها الحكومة الألمانية عليها.

وفي بريطانيا تولى رئاسة الحركة الصهيونية حاييم وايزمن (Chaim Weizman)، أستاذ الكيمياء الصناعية في جامعة مانشستر (Manchester)، الذي استطاع الحصول على تصريح بلفور في ٢ تشرين الثاني سنة ١٩١٧ الذي تضمن عطف الحكومة البريطانية على إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين^(٣٣).

(٣١) علي محافظة، العلاقات الألمانية- الفلسطينية ١٨٤١-١٩٤٥، ص ١٤٤، ١٤٨.

(٣٢) المرجع نفسه، ص ١٦٠-١٦١.

(٣٣) Leonard Stein, The Balfour Declaration, The Magnes Press, The Hebrew University, The Jewish Chronicle Publications, 1961, pp. 113, 116, 462, 465, 470

على الرغم من رفض الدولة العثمانية للمشروع الصهيوني، إلا أن الآلاف من اليهود تدفقوا على فلسطين والقدس بخاصة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تحت حماية قناصل الدول الأوروبية في القدس، وانتشار الرشوة بين موظفي الدولة المسؤولين عن الهجرة، واستطاع اليهودي البريطاني السير مويس مونتيغوري الحصول على فرمان من السلطان العثماني عبدالمجيد سنة ١٨٥٤ بالسماح له بشراء أراضٍ في مدينتي القدس ويافا. بلغ عدد سكان القدس، حسب التعداد السكاني العثماني للمدينة سنة ١٨٤٩ (١١٦٨٢) نسمة منهم (٦١٤٨) مسلماً و(٣٧٤٤) مسيحياً و(١٧٩٠) يهودياً^(٣٤).

وبسبب تدخل قناصل الدول الغربية في القدس وسفرائها في إسطنبول لتسهيل هجرة اليهود إلى فلسطين قررت الحكومة العثمانية إنشاء أول مجلس بلدي في القدس سنة ١٨٦٣، وجعلت سنجق القدس مستقلاً عن ولاية سورية، وأتبعته مباشرة لوزارة الداخلية في العاصمة العثمانية سنة ١٨٧٤. ونمت مدينة القدس، وزاد عدد سكانها من (١٤٣٥٨) نسمة سنة ١٨٧١-١٨٧٢ منهم (٦١٥٠) مسلماً و(٤٤٢٨) مسيحياً و(٣٧٨٠) يهودياً، إلى (١٢٠٩٢١) نسمة سنة ١٩١٤، منهم (٧٠٢٧٠) مسلماً و(٣٢٤٦١) مسيحياً و(١٨١٩٠) يهودياً، حسب الإحصاءات العثمانية^(٣٥).

أسفرت الحرب العالمية الأولى عن انتصار الحلفاء وهزيمة دولتي الوسط ألمانيا والنمسا والدولة العثمانية. وتقدمت القوات البريطانية المرابطة في مصر نحو فلسطين بقيادة الجنرال اللنبي (Allenby)، وفي مساء الثامن من كانون الأول ١٩١٧، استدعى

(٣٤) عبلة المهتدي الزبدة، القدس تاريخ وحضارة، ص ٣٧٦ و ٣٨١.

(٣٥) المرجع نفسه، ص ٣٨٤ و ٣٩٣.

متصرف القدس العثماني عزت بك مفتي القدس كامل الحسيني ورئيس بلديتها حسين سليم الحسيني للاجتماع بهما في منزله. وقال لهما: ها قد أحاط الجنود الإنكليز بالقدس، ولا بد أن تسقط عما قريب بأيديهم، ولقد اعتزمت مغادرة المدينة بعد نصف ساعة، وأود أن ألقى بين أيديكم هذا الحمل الأدي العظيم ألا وهو تسليم المدينة. ثم ناول رئيس البلدية وثيقة التسليم ليسلمها للإنكليز. وهذا نصها المترجم إلى العربية:

منذ يومين والقنابل تتساقط على القدس المقدسة لدى كل ملة، فالحكومة العثمانية رغبة منها في المحافظة على الأماكن الدينية من الخراب، فقد سحبت القوة العسكرية من المدينة، وأقامت موظفين للمحافظة على الأماكن الدينية كالقيامة والمسجد الأقصى. وعلى أمل أن تكون المعاملة من قبلكم على هذا الوجه، فإني أبعث بهذه الورقة مع وكيلي رئيس بلدية القدس حسين بك الحسيني.

١٩١٧/١٢/٨ - ١٣٣٣ هـ

متصرف القدس المستقل / عزت"

وفي صباح يوم الأحد ١٩١٧/١٢/٩ تم تسليم وثيقة التسليم من قبل رئيس البلدية إلى قائد الفرقة الستين من الجيش البريطاني الجنرال شي (General Shea). ودخلت القوات البريطانية إلى المدينة في الساعة العاشرة والنصف من صباح ذلك اليوم^(٣٦).

(٣٦) المرجع نفسه، ص ٣٨٤ و ٣٩٣، وعلي محافظة، العلاقات الألمانية- الفلسطينية، ص ١٧٠-١٧٣.

كان احتلال القوات البريطانية للقدس مادة دعائية كبرى لرئيس وزراء بريطانيا لويد جورج (Lloyd George)، فقد أعلن ذلك في مجلس العموم البريطاني في العاشر من كانون الأول. ونشرت الصحف البريطانية النبأ في اليوم التالي بحماسة واضحة. وجاء في افتتاحية صحيفة (The Glasgow Herald): "إن أخذ القدس مؤثر على نهاية حقبة من الظلام والانحطاط وفقدان الأمل، وبداية عهد من النور والأمل، كما كان يحلم به الأنبياء من زمن بعيد". وتوقعت صحيفة (The Times) اللندنية "نظاماً جديداً في الأراضي المقدسة يقوم على مبادئ الاستقامة والعدالة". وقرعت أجراس الكنائس في الجزر البريطانية احتفالاً بالنصر^(٣٧).

في أعقاب احتلال القدس، وجه حاييم وايزمن كتاباً إلى بلفور يطالبه بتسليم حائط المبكى (حائط البراق) لليهود بقوله: "إنه المكان المقدس الوحيد المتبقي لنا نحن اليهود، إذ إن معظم نصبنا المقدسة في مدينتنا المقدسة هي في أيدي جالية مغربية متدينة". وأنهى كتابه بطلب ترحيل المغاربة من الحي الذي يقيمون فيه. تقدم حاكم القدس العسكري رونالد ستورز (Ronald Storrs) إلى مفتي القدس باسم وايزمن ونيابة عنه بطلب رصيف المبكى وليس الحائط. وكان جواب المفتي أن تلك الأرض وقف إسلامي، وأنها غير قابلة للبيع تحت أي ظرف حتى للمسلمين أنفسهم. وأرسل وايزمن يهودياً مغربياً يحمل عرضاً مالياً ضخماً إلى ناظر الوقف، وكان جواب الناظر الرفض المطلق. أفزعت هذه الأنباء قادة المسلمين في القدس الذين ألفوا في الحال منظمة لحماية المسجد الأقصى^(٣٨).

(٣٧) James Barr, *Setting the Desert on Fire, T.E. Lawrence and British Secret War in Arabia 1916- 1918*, New York, Norton Paperback, 2009, p. 215

(٣٨) عبداللطيف الطيباوي، الأوقاف الإسلامية بجوار المسجد الأقصى بالقدس: أصلها وتاريخها واغتصاب إسرائيل لها، ترجمة عزت جرادات، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية، عمان، ١٩٨١، ص ٣٦-٣٧.

وفي الأول من تموز سنة ١٩٢٠ عينت الحكومة البريطانية اليهودي الصهيوني هربرت صموئيل (Herbert Samuel) مندوباً سامياً على فلسطين وشرق الأردن، قبل موافقة عصبة الأمم على صك الانتداب البريطاني عليهما بسنتين، فكان بداية مشؤومة للإدارة المدنية للبلاد التي حلت محل الإدارة العسكرية للانتداب البريطانية. وبقي صموئيل خمس سنوات في منصبه هذا، فوضع الأسس لتنفيذ تصريح بلفور الذي تضمنه صك الانتداب على فلسطين^(٣٩).

في السنوات العشر الأولى من الحكم البريطاني في فلسطين، قام اليهود بمحاولات عديدة لتثبيت حقهم في حائط المبكى، كموقع ديني يهودي مقدس. وفي سنة ١٩٢٨، دعت الحكومة البريطانية المجلس الإسلامي الأعلى ومجلس الحاخامين الرئيسي في فلسطين لتقديم الأدلة الوثائقية التي يمتلكونها حول هذه المسألة. تمكن المجلس الإسلامي الأعلى من تقديم الوثائق المتعددة التي تثبت أن المكان وقف إسلامي، بينما فشل مجلس الحاخامين في تقديم أية أدلة تثبت حقه في حائط المبكى. وفي ١٥ آب ١٩٢٩، يوم الذكرى السنوية لتدمير الهيكل عند اليهود، جاء مئات من الهاغاناه (منظمة الشبيبة اليهودية شبه العسكرية) من تل أبيب إلى القدس، ولما وصلوا إلى حائط المبكى رفعوا العلم الصهيوني، وأنشدوا النشيد القومي اليهودي، واستمعوا لخطب سياسية، وهتفوا بشعارهم "الحائط لنا". وفي ٢٣ آب حدثت الاضطرابات الدموية في القدس والمدن الفلسطينية الكبرى. وتشكلت لجنة دولية برئاسة وزير خارجية السويد الأسبق إيليل لوفجرين لدراسة الموضوع من قبل عصبة الأمم، واتخذت قراراً في كانون الأول ١٩٣٠ باعتبار حائط المبكى (البراق) وفقاً

(٣٩) المرجع نفسه، ص ٣٧-٣٨.

إسلامياً وكذلك الرصيف المجاور لحي المغاربة في القدس. وفي ٤ حزيران ١٩٣١، صدر قرار من حكومة فلسطين بالمصادقة على قرار اللجنة الدولية المذكور. ونشر في الجريدة الرسمية في ١٩٣١/٦/٨، وأصبح قانوناً معترفاً به محلياً ودولياً^(٤٠).

فتحت حكومة الانتداب البريطانية أبواب فلسطين للهجرة اليهودية إليها من جميع أنحاء العالم حتى ١٥ أيار ١٩٤٨ نهاية الانتداب. وكانت ردود الفعل الفلسطينية الاحتجاجات والإضرابات والمظاهرات والثورات وخاصة ثورة فلسطين الكبرى ١٩٣٦-١٩٣٩. وقاومت سلطات الانتداب ردود الفعل الوطنية العربية في فلسطين، وقمعت الاحتجاجات والإضرابات والمظاهرات، واستقدمت (٨٠) ألف جندي بريطاني للقضاء على ثورة فلسطين الكبرى. ولما أصبح عدد اليهود في فلسطين حوالي ثلث مجموع سكانها، وتأكدت بريطانيا من توفر الظروف الملائمة لقيام كيان سياسي يهودي في البلاد قررت الانسحاب من فلسطين، وعرض القضية الفلسطينية على هيئة الأمم المتحدة في نيسان ١٩٤٧. وكانت في هذه الأثناء قد حلت الولايات المتحدة الأمريكية محل بريطانيا في دعم المشروع الصهيوني ومساندته مالياً وعسكرياً ودبلوماسياً. ونجحت في اتخاذ قرار من الجمعية العامة للأمم المتحدة بتقسيم فلسطين وإقامة دولة إسرائيل. وعلى الرغم من أن قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة الصادر في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧ قد تضمن اعتبار القدس وضواحيها منطقة محايدة ومجردة من السلاح، وتحت إشراف دولي، وبإدارة حاكم تعينه الأمم المتحدة من أجل ضمان وصيانة الأماكن المقدسة والأبنية الدينية ومواقعها، إلا أن الوكالة اليهودية تحددت هذا القرار واحتلت قواتها القدس الغربية التي تضم الأحياء العربية: الطالبية والقطمون

(٤٠) المرجع نفسه، ص ٤١-٤٥ و ٤٨.

والبقعة، وأحكمت الطوق على المدينة. ولولا تدخل الجيش العربي الأردني في ١٨ أيار ١٩٤٨ الذي حمى المدينة المقدسة، لسقطت في أيدي الصهاينة^(٤١).

قامت دولة إسرائيل على العديد من الخرافات والأساطير والأكاذيب. أول هذه الأكاذيب أن فلسطين بلاد خالية من السكان، وثانيها أن اليهود شعب بلا وطن. وقد فند هاتين الكذبتين المؤرخ اليهودي شلومو ساند (Shlomo- Sand) بكتابه "اختلاق الشعب اليهودي The Creation of the Jewish People" الصادر سنة ٢٠١٠ عن دار النشر (Verso) في لندن. وثالث هذه الأساطير هو أن الصهيونية هي اليهودية. والواقع أن الصهيونية مجرد تعبير ثانوي عن الحياة الثقافية اليهودية. ورابع هذه الأساطير أن الصهيونية ليست استعماراً، والحقيقة أن الحركة الصهيونية حركة استعمارية استيطانية اغتصبت أرض شعب آخر وطردته منها. وهي تتبنى منطق الإبادة لإزالة السكان الأصليين والتطهير العرقي. والأسطورة الخامسة أن الفلسطينيين قد غادروا بلادهم بإرادتهم سنة ١٩٤٨. وقد رد على هذه الأسطورة المؤرخ نور مصالحة من فلسطيني سنة ١٩٤٨ في إسرائيل بكتابه "Expulsion of the Palestinians تحرر الفلسطينيين" الصادر سنة ١٩٩٢. والأسطورة السادسة أن الحرب العربية- الإسرائيلية سنة ١٩٤٨ كانت حرباً بين داود وجالوت. والأسطورة السابعة أن إسرائيل مدت يدها للسلام فرفضها الفلسطينيون والدول العربية، وقد بين المؤرخ اليهودي البريطاني الجنسية العراقي الأصل آفي شلايم (Avi Shlaim) كذب هذه الأسطورة في كتابه "الجدار الحديدي The Iron Wall" ورفض قادة إسرائيل منذ نشأة الدولة السلام مع العرب. وأكد المؤرخ الإسرائيلي (Ilan Pappé) في كتابه "التطهير العرقي في إسرائيل The Ethnic Cleansing of Palestine" الصادر

(٤١) المرجع نفسه، ص ٥٠-٥٢.

سنة ٢٠٠٦ أن أعمال إسرائيل الحربية سنة ١٩٤٨ ترقى إلى مستوى جرائم حرب. والأسطورة الثامنة أن حرب حزيران سنة ١٩٦٧ كانت حرب الضرورة، فقد فرضت هذه الحرب على إسرائيل احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة والاحتفاظ بهما رهينة حتى يقبل العالم العربي والفلسطينيون بإقامة السلام مع إسرائيل. وفضح إعلان بابيه هذه الأسطورة أو الكذبة الكبرى مبيناً أن قادة إسرائيل سعوا منذ مطلع الستينيات من القرن العشرين وخططوا لإقامة إسرائيل الكبرى. وبعد حرب ١٩٦٧ ضمت القدس الشرقية إليها وهضبة الجولان، وأنشأت مئات المستعمرات على أرض الضفة الغربية وقطاع غزة. والأسطورة التاسعة هي أن إسرائيل الدولة الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط. إسرائيل الدولة التي تدعي الديمقراطية يخضع خمس سكانها - وهم من الفلسطينيين - للحكم العسكري وتطبق عليهم أنظمة وتعليمات الإدارة العرفية في عهد الانتداب البريطاني، ويحرمون من الحقوق المدنية والإنسانية. وتمارس إسرائيل جميع أنواع التمييز العنصري ضد الفلسطينيين. والأسطورة العاشرة هي أسطورة أو سلو القائلة إنها عملية سلام حقيقية، إلا أن ياسر عرفات سعى عن قصد إلى إفشالها بإثارة الانتفاضة الفلسطينية الثانية. والأسطورة الحادية عشرة هي أسطورة غزة، إذ اعتبرت إسرائيل انسحاب قواتها من غزة مبادرة سلام حقيقية أو مصالحة. والواقع أن الانسحاب كان جزءاً من استراتيجية تهدف إلى تقوية قبضة إسرائيل على الضفة الغربية وتحويل قطاع غزة إلى سجن كبير يمكن مراقبته جيداً من الخارج. والأسطورة الثانية عشرة هي: حلّ الدولتين هو السبيل المتاح في المستقبل. إن ما فعله الاستعمار الإسرائيلي في الضفة الغربية يجعل رؤية حل الدولتين مستحيلة^(٤٢).

(٤٢) Ilan Pappé, Ten Myths About Israel, London, Verso, 2017، وعلي محافظة،

قرأت لك، إعداد وتحرير عبدالله العساف، عمان، دار دجلة، ٢٠١٨، ص ٣٣٦-٣٦٨.

وبعد ضم القدس إلى الأراضي الإسرائيلية في ٢٧ حزيران ١٩٦٧ واستيلاء إسرائيل على معظم الأوقاف الإسلامية فيها، استنكرت منظمة الأمم المتحدة الإجراءات الإسرائيلية، وأصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارين: الأول في الرابع من تموز ١٩٦٧، والثاني في الرابع عشر منه بعدم قانونية جميع الإجراءات التي اتخذتها إسرائيل لتغيير وضع المدينة المقدسة وطالبتها بالتراجع عنها. وقرر مجلس الأمن الدولي في ٢١ أيار ١٩٦٨ تأكيد قراري الجمعية العامة السابقين، كما أكد مبدأ عدم إقرار الاستيلاء على أرض الغير بالحرب، وأن جميع الإجراءات القانونية والإدارية التي من شأنها أن تغير الأوضاع الشرعية لمدينة القدس تعتبر باطلة. وطالب المجلس إسرائيل بأن تتوقف عن تلك الإجراءات^(٤٣).

عملت إسرائيل أيضاً على تهويد القدس الشرقية، وطمس معالم الحضارة العربية والإسلامية فيها، وتكرار الاعتداءات على المسجد الأقصى. وفي صباح يوم ٢١ آب ١٩٦٩ قام المجرمان الإسرائيليان دنيس مايكل (Denis Michael) ووليم روهان (William Rohan) بحرق المسجد الأقصى. وبلغت مساحة الجزء المحترق من المسجد (١٥٠٠) متر مربع.

لقد عبر الشاعر محمد جواد فضل الله عن مشاعر الأمة تجاه هذا الحادث الأليم بقوله:

إن شبت النار في أستار قبته فمن لظاها على أكبادنا نار

(٤٣) عبداللطيف الطيباوي، الأوقاف الإسلامية بجوار المسجد الأقصى بالقدس، ص ٦٠-٦٤.

تحوم أرواحنا من حوله شغفاً ويفتديه بذوب الأنفس الثار

سور له من ضحايانا ستحكمه إذا تهاوت له بالغدر أسوار^(٤٤)

وصدر على أثر ذلك قرار من مجلس الأمن الدولي في ١٥/٩/١٩٦٩ أكد أن القدس مدينة تحت الاحتلال العسكري الإسرائيلي. وطالب المجلس إسرائيل بمراعاة قرارات مؤتمرات جنيف والقوانين الدولية المتعلقة بالاحتلال العسكري^(٤٥).

وبدأ التنقيب عن الآثار تحت المسجد الأقصى منذ سنة ١٨٦٣ وطوال عهد الانتداب البريطاني على فلسطين بحثاً عن آثار تؤكد ما ورد في العهد القديم من قصص وأساطير وعن هيكل سليمان المزعوم، دون التوصل إلى أي نتيجة إيجابية. واستمر الإسرائيليون في التنقيب تحت المسجد منذ سنة ١٩٦٧ وحتى سنة ٢٠٠٨. وقد أثار هذا التنقيب حفيظة الدكتورة كاتلين كينون، مديرة معهد الآثار البريطاني في القدس، وأستاذة علم الآثار في جامعة أكسفورد ببريطانيا، التي قالت: "إن عملية الحفريات الإسرائيلية التي تجريها إسرائيل حول الحرم القدسي لها أشع حفريات لتدمير التاريخ القديم، وإن إتلاف البنية الإسلامية التي بنيت في العصور الوسطى جريمة كبرى، ولا يعقل أن يتم تشويه الآثار بمثل هذه الحفريات"^(٤٦).

(٤٤) عزت جرادات، تاريخ القدس وحاضرها: ص١٦٣-١٦٤.

(٤٥) المرجع نفسه، ص٦٤-٦٥، وأنور محمود زناتي، تهويد القدس، محاولات التهويد والتصدي لها من واقع النصوص والوثائق والإحصاءات، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١٠، ص٦٣-٧٠.

(٤٦) أنور محمد زناتي، تهويد القدس، ص٦٨.

فقد هدمت السلطات الإسرائيلية حي المغاربة في القدس الشرقية ليتسع للمصلين اليهود أمام حائط المبكى. وقد غيّر الإسرائيليون الأسماء العربية الإسلامية والمسيحية والكنعانية واليبوسية والعمورية للمدن والقرى والجبال والأودية والأنهار والينابيع والمواقع والشوارع والطرق والأبنية والساحات العامة إلى أسماء يهودية، وحتى أبواب مدينة القدس، وهودت التعليم في القدس الشرقية^(٤٧).

ويوجد حالياً على الساحة الإسرائيلية ما يربو على ثلاثين منظمة متطرفة وإرهابية تمارس العنف والإرهاب ضد العرب الفلسطينيين وضد العناصر اليهودية المنادية بالسلام من اليساريين وغيرهم، وتشجع على الاستيطان في القدس والأراضي العربية المحتلة، وطرد الفلسطينيين من منازلهم والحدود محلهم، وإقامة الصلوات اليهودية في المسجد الأقصى وساحاته، وإقامة الهيكل اليهودي في الحرم القدسي، والاستيلاء على المسجد الأقصى وقبة الصخرة أو العمل على نسفه وتدميره. ومعظم أعضاء هذه المنظمات من ضباط وأفراد الجيش الإسرائيلي المتقاعدين أو الاحتياط^(٤٨).

ورداً على هذه الإجراءات قرر مجلس الأمن الدولي (قرار رقم ٤٦٥) في ١٩٨٠/٣/١، "أن جميع الإجراءات التي اتخذتها إسرائيل لتغيير المعالم الجغرافية والبنوية والسكانية في الأراضي الفلسطينية والعربية التي احتلتها سنة ١٩٦٧، بما في ذلك القدس أو أي جزء منها لن تكون لها أية قيمة قانونية وأن سياسة إسرائيل وممارستها الهادفة إلى نقل أو إسكان مهاجريها ومواطنيها في تلك الأراضي تعتبر انتهاكاً صارخاً لاتفاقية جنيف الرابعة الخاصة بحماية السكان المدنيين إبان الحرب".

(٤٧) المرجع نفسه، ص ٦٩ و ٨٩-٩٣ و ٩٨-١٠٣.

(٤٨) عزت جردات، تاريخ القدس وحاضرها، ص ٢٢٦-٢٣٨.

وفي ١٩٨٠/٦/٣٠، أكد مجلس الأمن الوضع الخاص لمدينة القدس ووجوب المحافظة على أبعادها الروحية والدينية الفريدة والأماكن المقدسة فيها. وأكد قراراته كافة التي تدعو إلى إنهاء احتلال القدس وباقي الضفة الغربية^(٤٩).

وأصبحت قضية القدس لأول مرة كبنء مستقل على جدول أعمال مؤتمرات القمة العربية في مؤتمر قمة الجزائر سنة ١٩٧٣، فقد اتخذ مؤتمر الجزائر قراراً نص على تحرير مدينة القدس وعدم القبول بأي وضع من شأنه المساس بسيادة العرب الكاملة على المدينة المقدسة. وأكدت مضمون هذا القرار مؤتمرات قمة الرباط سنة ١٩٧٤ وقمة بغداد سنة ١٩٧٨، وقمة تونس سنة ١٩٧٩، وقمة عمان سنة ١٩٨٠، وقمة فاس سنة ١٩٨٢، وقمة الدار البيضاء سنة ١٩٨٥، وقمة بغداد الطارئة سنة ١٩٩٠، وقمة القاهرة سنة ١٩٩٦، وقمة القاهرة سنة ٢٠٠٠ التي أطلق عليها قمة الأقصى. وقد استحدث هذا المؤتمر إنشاء صندوق القدس برأس مال مقداره (٨٠٠) مليون دولار لتمويل مشاريع تحافظ على الهوية العربية والإسلامية للقدس وللحيلولة دون طمسها. كما أنشأ صندوق انتفاضة القدس برأس مال مقداره (٢٠٠) مليون دولار يخصص للإنفاق على أسر الشهداء الفلسطينيين في الانتفاضة وتهيئة السبل لرعاية أبنائهم وتعليمهم.

وفي قمة عمان سنة ٢٠٠١ أكد القادة العرب تمسكهم بقرارات مجلس الأمن الدولي المتعلقة بالقدس، وتكرر ذلك في قمة بيروت سنة ٢٠٠٢^(٥٠).

(٤٩) أنور محمد زناتي، تهويد القدس، ص ١٩٠-١٩٣.

(٥٠) عزت جرادات، تاريخ القدس وحاضرها، ص ١٩٦-٢٠٣.

وأُسفر حريق المسجد الأقصى سنة ١٩٦٩ عن انعقاد أول مؤتمر قمة إسلامي في الرباط، وصدر عن مؤتمر القمة الإسلامي السادس إنشاء لجنة القدس برئاسة الملك الحسن الثاني، ملك المغرب، وعضوية (١٥) دولة إسلامية على مستوى وزراء الخارجية، يتم انتخابها لثلاث سنوات لدراسة وضع القدس ومتابعة تنفيذ القرارات الخاصة بالقدس المصادق عليها من قبل مؤتمرات وزراء خارجية الدول الإسلامية^(٥١).

لم تكثف إسرائيل بما فعلت في القدس وبقية الأراضي العربية المحتلة، ولتقطيع أوصال الضفة الغربية ووضع العراقيل للاتصال بين مدنها وقراها، أنشأت جدار الضم على طول حدود الهدنة سنة ١٩٤٩، بدءاً من ١٦ حزيران ٢٠٠٢، فالتهم هذا الجدار (٥٨) في المئة من مساحة الضفة الغربية، وأحاط هذا الجدار بالقدس وعزلها عن الضفة الغربية وأحاطها بالمستعمرات الاستيطانية. واستولى الجدار على (١٠٧) كيلومترات مربعة من مساحة الضفة الغربية، وعلى (٣١) بئراً ارتوازيّاً، وعزل (١٦) قرية يسكنها (١٢) ألف نسمة أصبحوا معزولين بين الجدار والخط الأخضر^(٥٢).

كانت مساحة المنطقة الخاضعة لبلدية القدس الغربية نحو (٣٨) ألف دونم، ضمت إسرائيل إليها في ١٩٦٧/٦/٢٨ (٧٣) ألف دونم من الأراضي العربية التي شملت (٢٨) قرية عربية. أما الأحياء الاستيطانية التي بناها الإسرائيليون شمال القدس وجنوبها فقد استوعبت حتى (١٦٨) ألف نسمة حتى سنة ١٩٩٣^(٥٣).

(٥١) المرجع نفسه، ص ٢٠٦-٢٠٧.

(٥٢) أنور محمود زناتي، تهويد القدس، ص ١٠٣-١١٠.

(٥٣) سمير الزين ونبيل السهلي، القدس معضلة السلام، سلسلة دراسات استراتيجية، العدد (٧)، أبو ظبي، الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ١٩٩٧، ص ٣٣-٣٧.

لم يرد ذكر في اتفاق أوسلو (أيلول ١٩٩٣) لمدينة القدس. ولم يحل الاتفاق دون استمرار إسرائيل في تهويد القدس ومصادرة ممتلكات سكانها العرب والاعتداءات المتواصلة على مقدساتها الإسلامية والمسيحية.

يفخر المقدسيون بمقاومة الاحتلال من خلال "الرباط والمرابطة" والاعتكاف في المسجد الأقصى لمواجهة اقتحامات المستوطنين والمنظمات الصهيونية المتطرفة والإرهابية. ومارسوا بناء خيم الاعتصام، مثل خيمة اعتصام جبل أبو غنيم وخيمة اعتصام بيت حنينا وخيمة حي البستان في سلوان، وخيمة اعتصام النواب المقدسيين بين ٢٠١٠/٧/١ و٢٠١٢/١/٢٣. ومارسوا رفع الأعلام الوطنية الفلسطينية، وكتابة الشعارات على الجدران، والإضرابات العامة والجزئية، وضرب المستوطنين وقوات الاحتلال بالحجارة وقنابل المولوتوف وإحراق المركبات الإسرائيلية، دفاعاً عن أنفسهم. واستعملوا السلاح الأبيض. وبلغ عدد شهداء القدس بين اندلاع الانتفاضة الأولى سنة ١٩٨٧ وتوقيع اتفاق أوسلو في ١٣/٩/١٩٩٣ (١٠٢) مئة وشهيدتين، وقدمت القدس بين سنتي ١٩٩٤ و٢٠٠٠ (١٣) شهيداً. وشهدت القدس في الانتفاضة الثانية بين ٢٠٠٠/٩/٢٨ و٢٠٠٤ (٦٩) عملية عسكرية منها (٤١) عملية استشهادية و(١٧) عملية إطلاق نار و(٣) عمليات طعن بالسكاكين. وبلغ عدد شهداء القدس خلالها (٥٥) شهيداً، وسقط في سنة ٢٠٠٧ (١٢) شهيداً. وفي انتفاضة القدس الأخيرة (١٠/١ - ٢٠١٥/١٢/٣١) استشهد (٣٧) وجرح (١٥٦٩) من سكانها^(٥٤).

(٥٤) خالد إبراهيم أبو عرفة، المقاومة الفلسطينية للاحتلال الإسرائيلي في بيت المقدس ١٩٨٧ - ٢٠١٥، بيروت، مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، ٢٠١٧، ص ٨٤-١٥٩.

والسؤال الذي يطرح دوماً هذه الأيام: هل ستبقى القدس رهينة الاحتلال الإسرائيلي، بعد أن اعترفت الولايات المتحدة بها عاصمة لإسرائيل ونقلت سفارتها من تل أبيب إليها في هذه السنة، وأعلنت عن صفقة القرن حلاً نهائياً للقضية الفلسطينية، متحدية القانون الدولي وقرارات مجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة؟

صحيح أن الأمة العربية قد شهدت خلال العقود الزمنية الثلاثة الأخيرة ضعفاً شديداً، وتفككاً مريعاً، وفرقة مذهلة. وظهرت على ساحاتها الداخلية ميليشيات متحاربة باسم الدين والمذهب تارة، وباسم القبيلة والمنطقة تارة أخرى. تتلقى هذه الميليشيات السلاح والمال من دول عربية شقيقة، ومن دول الإقليم المجاورة لنا والدول الكبرى الطامعة في السيطرة على ثرواتنا ومقدراتنا. وارتفعت رايات هذه الميليشيات في مصر وليبيا واليمن وسورية والعراق وأقطار المغرب العربي. وامتد نشاطها إلى القارتين الأفريقية والأوروبية. ولحق الدمار والقتل والإبادة الجماعية بأقطار عربية عديدة. ولم تعش الأمة أياماً أشد سواداً من أيامنا هذه. وتعمقت الأزمة حتى دخلت كل بيت، وشملت الحكام والمحكومين. وتشعبت، فهي أزمة سياسية داخلية وخارجية. وقد فشلت أنظمة الحكم العربية في بناء الدولة الحديثة، دولة القانون والمشاركة الشعبية في الحكم، وفرضت الحكم الفردي المطلق على شعوبها. واستغلت هذه الشعوب نخب حاكمة همها التسلط والتشبث بالحكم والكسب غير المشروع، والثراء الفاحش على حساب الفئات الفقيرة. وقمعت كل دعوة ومحاولة للإصلاح باللجوء إلى العنف والاعتقال والسجن والتعذيب والقتل.

وهي أزمة خارجية تمثلت في عجز أنظمة الحكم العربية عن حماية أوطانها والاستعانة بالقوى الخارجية لحمايتها، وإقامة القواعد العسكرية الأجنبية على أراضيها، والتبعية العنصرية لهذه القوى، وتخاذلت أمام إسرائيل، ولم تستح بإعلان التطبيع معها،

واستقبال رئيس وزرائها وكبار المسؤولين فيها. وانهار التضامن العربي، وغدت جامعة الدول العربية منتدًى خاصاً للدول النفطية.

وهي أزمة اقتصادية تمثلت في عجز أنظمة الحكم العربية عن تحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية الشاملة والمستدامة، واستمرار حالة التخلف، وفشل محاولات تجديد البنى الاجتماعية والإدارية والسياسية للمجتمعات العربية، وظل معيار الانتماء الأسري والعشائري والإثني والطائفي، فضلاً عن الولاءات الشخصية، المعيار المعتمد للحصول على المراكز السياسية والإدارية والمواقع الاجتماعية، وليس معيار الكفاءة والإنجاز. وبقيت المحسوبية والدوافع العاطفية والمصالح الشخصية تسود مجتمعاتنا المتخلفة، بدلاً من سيادة القانون والعقلانية، كموجهات لسلوك الاجتماعي ونمط التفكير. وظلت الأقطار العربية مرتبطة بمراكز الرأسمالية العالمية في الغرب الصناعي، واقتصادها مرتهاً للقوى الاقتصادية الدولية الفاعلة.

واتسمت المجتمعات العربية بتدني نسبة مساهمة القوى العاملة في النشاط الاقتصادي، وانتشار البطالة التي بلغت (١٧,٤) بالمئة من إجمالي القوى العاملة سنة ٢٠١٣، مقارنة بالمتوسط الدولي البالغ (٥,٧) بالمئة، وضآلة نسبة مساهمة المرأة في النشاط الاقتصادي التي لم تتجاوز (٢٩) بالمئة سنة ٢٠١٠. وزاد الطين بلة تقادم المديونية الخارجية العربية، إذ ارتفعت قيمة الدين الخارجي من (١٤٣,٨) مليار دولار سنة ٢٠٠٠ إلى (١٧٦,٢) مليار دولار سنة ٢٠١١. أما الدين العام فقد ناهز (٥٩٠,٦) مليار دولار سنة ٢٠١٣، وارتفعت نسبته إلى الناتج المحلي لتبلغ (٥٢,٥) بالمئة^(٥٥).

وهي أزمة ثقافية تدور حول هوية الفرد وهوية المجتمع وهوية الأمة. هل نحن مسلمون أولاً أو مسيحيون أو صابئة أم عرب؟ وهل نحن مسلمون سنة أولاً أم مسلمون

(٥٥) علي محافظة، الانتفاضة الثورية العربية، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠١٧، ص ١٨٨.

شيعة؟ وهل نحن سلفيون أولاً أم مسلمون وهابيون أولاً؟ وهل انتماؤنا للوطن أم للدين أم للمذهب؟ وهل العروبة عرق أم انتماء ثقافي؟ وهل ننتمي أولاً إلى عشائرننا وقبائلنا أم إلى المناطق الجغرافية التي ولدنا فيها أو نعيش فيها؟ هذه الأسئلة طرحناها على بساط البحث والنقاش قبل مئة عام ونيف مع بداية نهضة العرب القومية، وعدنا نطرحها من جديد متجاهلين قرناً من الزمن نمت فيه المشاعر القومية وتجذرت في النفوس والعقول.

بهذه الأسئلة ندرك أن مجتمعاتنا العربية قد تمزقت نسجها، وتقطعت أوصالها، وبترت روابطها التاريخية بفعل الحروب الأهلية، وتمرغت سمعة العرب في الأوحال، وتلوثت صورة الإسلام على يد الإسلام السلفي الجهادي الحالي.

حال الأمة هذه تجعل الإجابة عن مصير القدس أمراً في غاية الصعوبة والتعقيد. وتبعث في النفوس اليأس والإحباط. ولكن من يدرس تاريخ هذه الأمة يعرف أنه من حلقة الظلام انبعث نور الأمل والنصر، ومن حالة اليأس والقنوط انبثق الإيمان بالمستقبل الزاهر، ومن الفرقة والتناحر والفوضى انطلق النداء نحو الوحدة والتضامن والقوة، باعتبارها سبيل النصر ودحر الغزاة والمعتدين. إن أمتنا أمة حية لا تموت ويقظتها ونهوضها قادمان إن شاء الله. لقد تعرضت القدس وفلسطين للغزو الصليبي والتتاري في ظروف مماثلة لظروف أمتنا الحالية، ولكن القوى الحية في هذه الأمة تصدت للغزاة وأخرجتهم من البلاد.

وأعتقد أن نهوض أمتنا قد اقترب، فشعوبها لم تعد تقبل العلاقة الراهنة بين الحكام والمحكومين، ولم تعد ترضى بإثارة الفتن المذهبية، والنزاعات القبلية، والخلافات

الجهوية. ولا بد من العودة إلى التضامن العربي، وإبداء المزيد من التعقل والحكمة لدى القادة السياسيين، والإدراك الواعي للأخطار التي تهددهم وتهدد شعوبهم، وللأطماع الأجنبية في خيرات وثروات بلدانهم. وعليهم أن يعلموا أن الاستعانة بالقوى الأجنبية لحماية عروشهم ومواقعهم قد جلبت لأسلافهم المذلة والخضوع لإرادة الأجنبي، والهيمنة على مقدرات بلدانهم لعقود طويلة من الزمن. وعليهم أن يتعلموا، ولو لمرة واحدة، العبر والدروس من ماضيهم وتاريخهم القريب.

أما الأزمة الاقتصادية فلا تحل إلا بالاقتناع التام بالتكتل الجماعي وتفعيل آليات العمل الاقتصادي العربي المشترك في مجالات التجارة والتمويل والاستثمار، وتوفير الأيدي العاملة الرخيصة والأيدي الماهرة النشيطة، ورجال الأعمال الأتكياء، والطبقة السياسية التي تستجيب لحاجات مجتمعاتها. ولا بد للعرب من بناء اقتصاد يتاح فيه للقطاع الخاص ممارسة نشاطه الذي يتناسب مع حوافز المبادرة الفردية وغاياتها، ويحقق الموازنة بين الأبعاد الدولية والإقليمية والعربية في العلاقات الاقتصادية.

وعلى الصعيد الثقافي ما تزال العروبة، كإنتماء ثقافي، الفكرة التأسيسية الكبرى للقادة على التجميع ولمّ الشمل.

أما إسرائيل، هذا الكيان الغريب الذي زرعه القوى الاستعمارية الغربية في جسد الأمة العربية، والذي بات يهدد وجودنا وحياتنا ويشكل خطراً دائماً على مستقبلنا، فعلى الرغم من قوتها العسكرية، وامتلاكها المئات من القنابل النووية، والتقدم العلمي والتكنولوجي الذي حققته، فإن مصيرها إلى زوال. فهي آخر الكيانات الاستعمارية الاستيطانية في العالم، وآخر أنظمة العزل العنصري فيه، وبحكم طبيعتها العدوانية

التوسعية لا بد أن تثير القوى الحية في أمتنا فتتصدى لها. وصراعنا معها، على الرغم من حالة الضعف والتردي التي تسود أمتنا حالياً، هو صراع وجود، ولا يمكن أن تقبل بسلام عادل مع أمتنا، فهي تطالب دوماً بالهيمنة والسيطرة علينا وعلى بلادنا، ولا تقبل إلا إذلالنا وخضوعنا لأطماعها، لأنها لا تعترف بنا كبشر مساوين لها وأنداداً. لقد تنبأ بزوالها المؤرخ البريطاني الشهير أرنولد توينبي في محاضراته وأحاديثه في المؤتمرات والندوات التي تناولت تاريخ الشرق الأوسط ومستقبله.

وهذا يعقوب شاريت، ابن موشيه شاريت، الذي كان وزيراً للخارجية ورئيساً للوزراء في الكيان الصهيوني في النصف الأول من عقد الخمسينيات من القرن العشرين، يؤلف كتاباً بعنوان "إسرائيل إلى زوال" "Israel is Going to be Vanished" بالإنكليزية، وترجم إلى العربية سنة ١٩٩١، ويعقوب هذا كاتب ومفكر إسرائيلي، توصل من خلال متابعته ما حصل في إسرائيل من قيامها سنة ١٩٤٨ إلى الاقتناع بحتمية زوال دولة إسرائيل. فهو يرى أن دولة إسرائيل مرحلة من مراحل تاريخ اليهود، ولا بد أن تكون لها نهاية، وأيامها معدودة، لأنها تسير بأقصى سرعة إلى نهايتها، وهي ترتدي لباس وحش مخيف.

وهو يرى أن العرب لا يمكن هزيمتهم وإبادتهم لكثرتهم واتساع مساحات أوطانهم، وهذه حقيقة ثابتة ودائمة. وي طرح سؤالاً مهماً: ما الفائدة من إقامة دولة يهودية، وما الغاية من وجودها؟ هل نسعى لإقامة دولة تعيش في حصار مئة عام أخرى؟ دولة، تعيش في نزاع عسكري دائم مع جيرانها؟ يقول يعقوب شاريت: "لم يقم اليهود دولة إسرائيل المنشودة، وإنما أوجدوا مخلوقاً بشعاً مسلحاً من رأسه حتى أخمص قدميه، من

العصا حتى القنبلة النووية، يدعى إسرائيل". ويقول أيضاً: "إن إسرائيل بتوجهها النووي تؤكد للعالم بأن تقديراتها تقول إن السلام لن يسود بينها وبين جيرانها إلى الأبد".

يواصل يعقوب شاريت حديثه: "في كل عقد من الزمن ينشأ في إسرائيل جيل جديد متعطش للمغامرات العسكرية. وينسى هؤلاء أن الوجود اليهودي في فلسطين لم يكن ليصبح دولة لولا الانتداب البريطاني ولولا وعد بلفور. ولم تكن دولة إسرائيل لتقوم وتبقى لولا الضغط الأمريكي في أعقاب الحرب العالمية الثانية. ولم تكن إسرائيل لتبقى على وجه البسيطة لولا المساعدات والمنح والقروض التي تلقتها، ولا زالت تحصل عليها من الولايات المتحدة الأمريكية، ولولا التعويضات المالية التي تحصل عليها من ألمانيا الاتحادية، ولولا الأسلحة التي اشترتها من فرنسا وبريطانيا ودول أخرى. إن حدوث تحول شديد في الرأي العام العالمي الذي قد يحدث نتيجة للتصرفات الإسرائيلية الفاشية والإمبريالية من شأنه جعل إسرائيل تواجه وضعاً نفسياً وسياسياً واقتصادياً وعسكرياً أصعب من أن تتحمله، وسيجعل منها فريسة سهلة تغري أعداءها ويجعلها عرضة للخراب والدمار".

يقول يعقوب شاريت: "إن الدعاية الإسرائيلية تردد صباح مساء أن إسرائيل ثروة استراتيجية عظيمة القيمة وحيوية للدول الغربية. فهي تعرض نفسها بمثابة مقاول للأعمال القذرة. وسلكت جميع حكوماتها هذه الطريق الخطرة. وهي تحرك شفقة المتبرعين اليهود لصندوق الجباية اليهودية... كل هذا يشكل في جوهره دليلاً واضحاً على عدم ثقة قادة إسرائيل بقدرتها على البقاء عسكرياً وأمنياً".

يتساءل شاريت: "أليس التوقع الدائم للحرب، وهذا الخوف المستمر منها ينبعان من جذور التوتر والهستيريا التي تتميز بهما الحياة في إسرائيل؟ وأليس اختيارها للسير

في طريق السيف يعني اختيارها للسير في طريق الفناء والانتحار؟ ... وهل إسرائيل الحالية في جيلنا الحالي قابلة للبقاء؟" ويجيب: "كلا، إسرائيل ليست دولة وجدت للبقاء، إنها دولة كلها خوف، وخوف متزايد على مصيرها".

والقدس في نهاية المطاف ستعود إلى أهلها وسيرحل عنها الغزاة إلى غير رجعة. وكما قال الشاعر:

غداً، غداً سيزهر الليمون

وتفرح السنابل الخضراء والزيتون

وتضحك العيون

وترجع الحمائم المهاجرة

إلى السقوف الطاهرة

ويرجع الأطفال يلعبون

ويلتقي الآباء والبنون

على رباك الزاهرة

يا بلدي، يا بلد السلام والزيتون